النزعة الإصلاحية للسلطان الظاهر بيبرس وأثرها الفكري والاجتماعي في مصر في الفترة (658- 676هـ/ 1260- 1277م)

د. عفاف شامان الوذيناني
أستاذ مساعد بجامعة الطائف

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا إنه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

وبعد

في قلب الزخم التاريخي لعصر المماليك؛ وفي خضم الحديث عن الاضطرابات الداخلية والحروب المغولية والصليبية وخصوصًا عصر السلطان الظاهر بيبرس؛ قد تختفي بعض الحقائق التاريخية، وبعض تصرفاته وأفعاله وقراراته خلف شخصيته الجادة.

ولا ندَّعي أننا سنحصي كل تصرفاته في بحثنا هذا، لكننا سنتتبع ما يمكن رصده من قراراته السلطانية وبيان أثرها على المجتمع من الجانب الفكري في عصره الذي امتد إلى دمشق، وسنتتبع على وجه الخصوص المجتمع المصري الذي هو مركز سلطنة الظاهر بيبرس.

كان سقوط بغداد وقتل الخليفة المستعصم سنة 656هـ؛ من أعظم البلايا في تاريخنا الإسلامي، حيث وصل عسكر التتار وهم مئتا ألف ومُقدَّمهم هولاكو[1] ، فخرج إليهم عسكر الخليفة فهُزم العسكر. ودخلوا بغداد واستمر القتل أربعين يومًا، فبلغ القتلى ألف ألف نسمة[2].

وأكبر منقبة قام بها الظاهر بيبرس هي استعادته الخلافة العباسية التي سقطت بأيدي المغول، وعودة البلاد التي صارت بأيديهم، واسترجاع أموال المسلمين التي استولوا عليها، وفك أسرى المسلمين الذين وقعوا بأيدي المغول والصليبيين، وكان يحضر الحروب

(1) حفيد جنكيز خان، وقائد جيش المغول في غزو بغداد. وكانت وفاته عن 48 عاماً، سنة 663هـ/ 1264م. وانظر في ترجمته: جامع التواريخ للهمذاني. مج2- جـ1- ص218- 342.
(2) انظر: تاريخ الخلفاء للسيوطي. ص715 و716.

بنفسه، ويُشرف عليها، حتى استعاد حمى بلاد الشام، وأعمر ما تخرَّب منها، وقام بتعيين حُكامها، وكان ذلك نشاطه على طول مدة حياته الكفاحية، وكبريات الأحداث طوال الثمانية عشر عامًا التي كان فيها بيبرس على قمة السلطة في مصر والشام.

أما استعادته للخلافة المسلوبة "فهى من أجَلِّ مناقب سيرته العطرة، والتي يتشرف بها ذوو السلطان، إذ بها علو المنزلة، وسمو المرتبة، وجمع الكلمة، وعودة هيبة الدولة الإسلامية بأركانها الدينية، وسياساتها الشرعية"[(3)].

لقد كان وضع العالم الإسلامي مأساويًّا في بداية سلطنة بيبرس، فحِمَى الإسلام مسلوبة، وشمل أهله ممزق، ليس لهم قائد يسوسهم، ويذود عنهم، إذ تكالب عليهم التتار تقودهم طائفة طائفة جنكز خان[(4)]، فعاثوا في الأرض فسادًا، فانعدم الأمن، وعم الظلم واستشرى القتل، وخربت ديار المسلمين، كبغداد وغيرها، وشرد الناس في الأقطار[(5)].

وكانت التهديدات تصل للسلطان بيبرس من أَبْغَا مَلِكِ التتار[(6)]، وغضب السلطان لهذه التهديدات فركب مسرعًا في عساكره متجها صوب الشام، وهناك التقى رسل أَبْغَا إذ نقلوا له تهديدات الملك المدوية: "أنتَ مملوكٌ أُبِعْتَ بِسِيوَاس[(7)]، فكيف يصلح لك أن تُخالفَ ملوكَ الأرض؟! واعْلَمْ أنك لو صعدتَ إلى السماء أو هبطتَ إلى الأرض ما تخلَّصتَ منِّي فاعمَلْ لنفسِكَ على مصالحة السلطان أَبْغا"، فلم يكترث السلطان لتهديداته، بل رد عليه رد الملوك والقائد الأبي الذي لا يهاب إلا الله، فقال لرسله: "أعلِمُوهُ أنِّي مِنْ ورائه بالمطالبة؛ ولا أزالُ حتى أنتزعَ منه جميع البلاد التي استحوذ عليها مِنْ بلاد الخليفة، وسائر أقطار الأرض"[(8)].

---

(3) تاريخ الملك الظاهر- عز الدين ابن شداد. ص278.

(4) جنكيز خان: هو أشهر من قام بالقتل والدمار، ولد في منغوليا، وتوفي 624هـ/ 1226م، فأراح منه العالم. وكان أتباعه ينتمون لطوائف شتى من عشائر المغول والتتار. وانظر في ترجمته وتاريخه: جامع التواريخ للهمذاني. مج1- جـ1- ص28 و40. تاريخ المغول منذ حملة جنكيز خان حتى قيام الدولة التيمورية. ص (57- 104)، و (114- 116).

(5) عقد الجمان للعيني. (عصر سلاطين المماليك) جـ1- ص287.

(6) (أبغا) أو (أبقا خان) أو (آباقا خان) هو الابن الأكبر لهولاكو، رشحته أمه لخلافة أبيه بعد وفاته، وكان أباقا يتولى في ذلك الوقت حكومة خراسان ومازندران. وتم تتويجه خليفة لأبيه في رمضان 663هـ، وتوفي سنة 680هـ/ 1282م. وانظر: جامع التواريخ للهمذاني. مج2- جـ2- ص3- 85. تاريخ المغول منذ حملة جنكيز خان حتى قيام الدولة التيمورية. ص213 و214 و217.

(7) سيواس: ذكرها بيبرس المنصوري فيما اشتملت عليه المملكة الرومية من البلاد الإسلامية: سيواس وبلاد دانشمند، وتُسمى دار العلاء. وانظر: زبدة الفكرة. ص30 و31. وكانت تتبع أرمينيا، ثم صارت تتبع تركيا (الآن) بعد الفتح العثماني لإمارة سيواس. وانظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية. ص66.

(8) البداية والنهاية لابن كثير. جـ17- ص481.

ومن الملاحظ أن كثيرًا من الظواهر الفكرية والاجتماعية في عصر بيبرس؛ تبرز على السطح في صورة مشكلات، ثم نجد بيبرس يتخذ قرارًا إصلاحيًّا صارمًا، فكأننا أمام صاحب منهج إصلاحي يجلس على قمة السلطة، فيؤثر في الجانبين الفكري والاجتماعي، فكان لزامًا التركيز عليهما.

وقد جاء البحث ليتناول "النزعة الإصلاحية للسلطان بيبرس وأبعادها الفكرية والاجتماعية في مصر"، والمقصود بالنزعة الإصلاحية نزوعه الدائم إلى خطوات إصلاحية، حيث تُستعمل المادة اللغوية (نَزَعَ إلى) أو (نزعَ بـ) بمعنى الميل والحنين والاشتياق والهمَّة والحضور والتناول والتعاطي(9). وكل هذه المعاني إذا اقترنت بالإصلاح فإنها تدل على صاحب منهج إصلاحي يمكن أن يُستشَفَّ، ويمكن التدليل عليه من خلال ما يظهر من أحداث عصره وكيفية تعامله معها.

وهناك دراساتٌ كثيرة عن عصر سلاطين المماليك، تناولت معظم جوانب هذه الفترة من التاريخ الإسلامي، لكنها كانت تشمل التاريخ المملوكي كله، أو تتناول إحدى دولتيه: الأولى أو الثانية، فلا تظهر أعمال بيبرس الإصلاحية، بل ربما أشار المؤرخون والباحثون إلى تلك الفترة على أنها فترة تأسيسية أقامت دولة المماليك وأنجحتها، وذلك من المنظورين السياسي والعسكري.

وقد تناول بعض الباحثين الجانب التعليمي في عصر سلاطين المماليك، فجاءت النتائج إجمالية ولم تتضح رؤية بيبرس، وكذلك تناول بعض الباحثين الجانب الاجتماعي، فلم تتضح رؤية بيبرس.

فمن الدراسات السابقة التي تناولت البعد الفكري في عصر سلاطين المماليك؛ وذلك على سبيل المثال: كتاب بعنوان: المدارس في مصر في عصر دولة المماليك: دراسة تاريخية من خلال الوثائق والوقفيات والحجج، للدكتور محمد العناقرة، وهو كتاب متخصص، جمع مؤلفه مادته من خلال الوثائق والمصادر المخطوطة والمطبوعة، واستوفى شروط البحث العلمي، لكنه – كما يظهر من عنوانه- كان يركز على الأوقاف، فتناول دورها وأهميتها في إرساء النهضة العلمية والثقافية في العصر المملوكي، مركِّزًا على المنشآت والوظائف بداخلها والوقف عليها، ولا شك في أهمية ذلك كله، لكنه استغرق الفترة المملوكية

(9) وانظر: تاج العروس. للزبيدي. (نزع). جـ22- ص239- 249.

كلها، فلم يظهر تأسيس بيبرس لهذا الجانب الفكري، فكان لزامًا عليَّ التركيز على ما قام به بيبرس من الناحية الفكرية.

ومن الدراسات التي تناولت البعد الاجتماعي؛ كتاب بعنوان: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك للأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، وهو كتاب لأستاذ متخصص، لا ينقصه أي جانب من جوانب البحث، بل هو نموذج للبحث العلمي الرصين، لكن من الواضح أن العنوان يشمل عصر سلاطين المماليك بالكامل، فهو يتناول– بالتأكيد– ظواهر اجتماعية استجدت بعد بيبرس، وحقائق تاريخية غابت عن عصر بيبرس، بل يمكننا الخروج بصورة شاملة للمجتمع في مصر في عصر المماليك من بدايته حتى نهاية عصر السلطان الغوري.

كان لابد من إعادة البحث بالنظر إلى فترة حكم بيبرس، ملتقطًا من بين المصادر ما اتخذه بيبرس من قرارات حيال الجانبين الفكري والاجتماعي، مستعينًا بآراء بعض الباحثين المعاصرين إذا توفَّر ذلك، فاتخذتُ لذلك **خطة من مبحثين يسبقهما مقدمة وتمهيد، وتعقبهما خاتمة.**

فتناولتُ في التمهيد نشأة بيبرس وسلطنته.

أما المبحث الأول فجاء بعنوان: البعد الفكري، وقد جاء في ثلاثة عناصر: أولا: ترسيخ المذاهب السنية الأربعة. ثانيا: التعليم؛ وتناولتُ فيه إنشاء المدرسة الظاهرية وافتتاحها، وإعادة فتح الجامع الأزهر، وإنشاء جامع السلطان بيبرس خارج الحسينية. ثالثًا: مكانة العلماء والأدباء.

وأما المبحث الثاني فجاء بعنوان: البعد الاجتماعي، وقد جاء في ثلاثة عناصر: أولا: طبقات المجتمع في مصر، وناقشتُ فيه الفروق الطبقية وظهور مشكلة الفقر، ومعالجة بيبرس لهذه المشكلة، من خلال مسامحاته، ومن خلال خطة لمواجهة إحدى موجات الغلاء التي حدثت في عصره. ثانيا: قضايا تتعلق بالمرأة، وتناولت فيه عقوبة بيبرس على التحرش بالمرأة، والاعتراض على بعض الملابس النسائية المبالغ فيها، وإبطال الخواطئ والبغاء من مصر. ثالثًا: إبطال الحشيش والخمور.

وجاءت الخاتمة لتضم حصاد البحث.

وقد واجهتُ بعض الصعوبات منذ بدأتُ البحث حتى انتهيتُ منه، ليس ذلك بسبب قلة المصادر أو المراجع، ولكن بسبب تكرار الأحداث في المصادر، فكان على الباحث أن يقرأ كل صغيرة وكبيرة عدة مرات حتى يجد مادته العلمية الملتقطة من بين سيل الأحداث. وظهرت أيضًا صعوبات تتعلق بضبط التواريخ، فضبطتُ ما فيه خلاف أو اختلاف.

كما لا يخفى على الباحثين في تاريخ المماليك أن هناك صعوباتٍ أساسية تتعلق بألفاظ ومصطلحات؛ عربية وغير عربية؛ وأسماء أشخاص ووظائف كانت قائمة، وأماكن تغيرت أسماؤها الآن أو تغيرت تبعيتها، فعلقتُ أحيانًا في متن البحث وأحيانًا في الهوامش إن كان تفسيرها سيعطل جريان لغة البحث، وقد حاولت بكل طاقتي التغلب على تلك الصعوبات وغيرها.

تمهيد

بيبرس نشأته وسلطنته:

هو السلطان الملك الظاهر أبو الفتوح ركن الدين والدنيا بيبرس العلائي البُنْدُقْداري الصالحي النجمي. وهو الرابع من ملوك الترك الذين تسلطنوا على مصر، فقد بدأ حُكم المماليك بالملِك الْمُعِز عِز الدين أيبك[10]، ثم بابنه الملك المنصور نور الدين علي بن المعز عز الدين أيبك[11]، ثم بالسلطان الملك المظفر سيف الدين قُطز[12]، وبعد مقتل قُطُز جلس بيبرس على مرتبة السلطنة.

ولد السلطان بيبرس في العشرين أو خمس وعشرين وستمائة في بلاد القبجاق[13]. ويُطلق المؤرخون العرب اسم القبجاق؛ أو: القبجق، أو: القبج، أو: القبق، على كل بلاد القفقاس (القوقاز)، وقد أحدث بيبرس ميدان القبق المعروف بمصر، لتدريب الجيش المجلوب

---

(10) هو المعز عز الدين أيبك بن عبد الله التركماني الصالحي النجمي، كان أول المماليك. وقد تزوج شجرة الدر؛ وقد كانت شديدة الغيرة؛ فلما أراد أن يتزوج بنت صاحب الموصل دبَّرت قتله في الحمَّام، وأعانها بعض الخدام، وكانت مدة سلطنته على مصر سبع سنوات. وانظر: النجوم الزاهرة. جـ7- ص13 و14.

(11) تسلطن الملك المنصور بعد وفاة أبيه، سنة 655هـ، وكان عمره خمس عشرة سنة. وكانت مدة سلطنته سنتين وسبعة أشهر واثنين وعشرين يومًا، حيث اعتقله تلميذ أبيه سيف الدين قطز، وتولى السلطنة بدلا منه، في ذي القعدة سنة 658هـ. وانظر: المصدر السابق. جـ7- ص55.

(12) سيف الدين قطز، كان مملوك المعز عز الدين أيبك، وقد خلع ابنه الملك المنصور بعد أن وصلت الأخبار بوصول المغول إلى الديار الشامية، والملك المنصور صغير لا يحسن التدبير، وصمم قطز على لقاء التتار، وخرج على رأس جيش، وهزمهم في معركة عين جالوت. وقُتِلَ قطز قبل رحلة العودة إلى مصر، في ذي القعدة سنة 657هـ، فيكون قد تسلطن سنة إلا يومًا واحدًا. وانظر: السابق نفسه. جـ7- ص72- 87.

(13) النجوم الزاهرة. جـ7- ص94.

من جبل القبق على الرمي، وهو جبل له صيت في البطولة. والمنطقة التي جاء منها بيبرس- تحديدًا- هي الآن دولة كازاخستان[14].
وفي سنة تسع وثلاثين وستمائة أزمع التتار على غزو بلاد بيبرس، فلما بلغهم، "..كاتَبُوا أنس خان ملك أولاق[15] أن يعبروا بحر صولاق[16] إليه ليُجيرهم من التتار، فأجابهم إلى ذلك وأنزلهم واديًا بين جبلين، فلما اطمأنَّ بهم المقام غَدَرَ بهم وشَنَّ الغارة عليهم، فقتل منهم وسَبَى"[17].

وكان بيبرس أخًا من الرضاعة للأمير الكبير بدر الدين بيسري[18]، ويروي بيسري مراحل رحلة كل منهما: "كنتُ أنا والملك الظاهر فيمن أُسِر، وكان عُمره إذ ذاك أربع عشرة سنة تقديرًا، فبيع فيمن بيع وحُمِلَ إلى سيواس، ثم افترقنا واجتمعنا في حلب في خان ابن قليج، ثم افترقنا، فاتفق أن حُمل إلى القاهرة، فبيع على الأمير علاء الدين أَيْدِكين البندقداري[19] وبقي في يده إلى أن انتقل عنه بالقبض عليه في جملة ما استرجعه الملك الصالح نجم الدين أيوب[20] منه، وذلك 644هـ"[21].

وهنا نلاحظ أنه كان حرًّا في بلاده، وابن أحرار، وأن التتار هُمْ سبب استرقاقه وخروجه من بلاده وبيعه، ولا نعتقد أنه ينسى تلك العداوة المتأصلة بينه وبين التتار.
ظل حكم السلطان بيبرس البندقداري من سنة 658هـ، إلى وفاته 676هـ[22].
وهنا مسألة: هل السلطان بيبرس ضالعًا في قتل السلطان قُطز؟

---

(14) تاريخ القوقاز- يوسف عزت باشا. ص65 و66.
(15) بلاد أولاق: المسماة أحيانًا (الأفلاق)، وهي الآن في رومانيا، وتسمى فالاشيا. وأطلق العثمانيون بعد ذلك اسم (أولاه) على أهالي الأفلاق- رومانيا حاليا- من الروم والبلغار والصرب. وانظر: المعجم الموسوعي. ص44.
(16) بحر صولاق (سولاك): هو نهر، وأحيانا تسمى الأنهار بحارًا. وهو من أهم بلاد الداغستان. وهناك نهر اسمه نهر تيرك، يتجه في مسيله إلى الشمال الشرقي، وترفده عشرات الأنهار؛ ومنها نهر صولاق، ثم يصب نهر تيرك في بحر الخزر (بحر قزوين). وانظر: تاريخ القوقاز لعزت باشا. ص13. موسوعة تاريخ القفقاس والشركس. ص29.
(17) النجوم الزاهرة. جـ7- ص96.
(18) هو الأمير الكبير بدر الدين (أو: شمس الدين) بيسري، كان من أكابر الأمراء المقدَّمين في خدمة الملوك، وكان أميرا من أمراء الجيوش المحاربة للتتار. مات بسجن قلعة مصر سنة 696هـ. وانظر: البداية والنهاية. جـ17- ص505 و575 و714.
(19) هو الأمير الكبير أيدكين بن عبد الله، علاء الدين الشهابي. كان مملوكا لجمال الدين بن يغمور، ثم للصالح أيوب بن الكامل. وولاه الظاهر بيبرس نيابة حلب لمدة. وتوفي 677هـ. وانظر: المصدر السابق. جـ17- ص545 و546.
(20) هو الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد بن العادل. ملك الديار الشامية والمصرية. ت 647هـ. وانظر: المصدر السابق. جـ17- ص303.
(21) النجوم الزاهرة. جـ7- ص96.
(22) مختار الأخبار- بيبرس المنصوري. ص12.

يشير المؤرخون أن بيبرس كان ضالعًا في قتل السلطان السابق عليه (قُطز)، لكن اختلفت الروايات في السبب وكيفية قتله. قيل: إن سبب قتله أن السلطان قطز لم يُوَلِّهِ نيابة حلب بعد موقعة عين جالوت، وهو سبب مستبعد، والسبب الآخر يرجع إلى ثأر قديم إبان حكم السلطان أيبك وتشريده معظم المماليك البحرية الصالحية وقتله زعيمهم أقطاي، إذ صار مماليك أيبك– وهُم المعزية ومنهم قطز– أصحاب النفوذ والسلطان في مصر. واستمر العداء بين المعزية والبحرية قائمًا حتى أغار المغول على مصر، فاضطر المماليك جميعًا إلى الاتحاد "فلما انتصر المماليك على المغول في عين جالوت؛ ولم تبق هناك ضرورة للاتحاد ظهر العداء القديم بين الطائفتين من جديد، وكان من نتائج ذلك مقتل قطز الْمُعِزي على يد بيبرس الصالحي"[23].

أما بخصوص سلطنته ومواقفه؛ فنحن أمام رجل تربَّى على الشدَّة والقسوة وعلى التدريبات العسكرية والرياضات الشاقَّة، وقد تعوَّد أن يباشر كل الحروب بنفسه، وأن يخرج منتصرًا، ولا يُعجبه التراخي ولا الظواهر السلبية في المجتمع.

وقد تبين من رواية بيسري السابقة؛ أن بيبرس كان أولًا مملوكًا للأمير علاء الدين أَيْدِكين البُندقدار الصالحي أحد مماليك السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب. فالملك الصالح كان قد نَقِم على البُندقدار أمرًا ما فأمسكه واعتقله وارتجع مماليكه وأضافهم إلى المماليك السلطانية، ومنهم ركن الدين بيبرس البندقداري، ولهذا يُعرف بالبُندقداري، ولَمَّا انتقل وصار في جملة المماليك السلطانية نُزِّلَ في جملة البحرية. ولقد عاش أستاذه[24] البندقدار إلى أن تسلطن، وصار من جملة أمراء دولته المنتظمين في خَدَمِه وخِدْمتِه، وكان يبره ويُراعيه ويعوده وينزل إليه.

ويمكننا الاطلاع على إحدى الطرق الخشنة التي ربَّاه بها أستاذه البندقدار، من خلال خبر زيارة بيبرس له حين مرض "فعاده ذات يومٍ وهو في دست سلطنته وتمكُّن عظمته، وكان بالدار التي هو ساكن فيها سدرة، وكان إذا ضرَبَ الملِكَ وهو عنده صغير يُعلِّقه في تلك الشجرة. ولما زاره ذلك اليوم ومعه أكابر الأمراء ووجوه العساكر؛ نظر إليها السلطان وقال: أتعرف هذه السدرة؟ فقال: يا خَوَند[25] أعرفها، ولولاها ما جاء هذا. يعني أنه

---

(23) قيام دولة المماليك الأولى- د. أحمد مختار العبادي. ص173.

(24) الأستاذ: استعملت عند المماليك على من يشتري المملوك بالمال ويربيه ثم يعتقه عند الكبر، وتُعتبر رابطة الأستاذية أقوى رابطة بين المملوك وأستاذه. وانظر: معجم الألفاظ التاريخية- محمد أحمد دهمان. ص14.

(25) الخَوَند؛ في الفارسية: السيد العظيم أو الأمير، واستعملت في العربية لقبًا بمعنى السيد أو السيدة. المرجع السابق. ص70.

لولا التأديب والتخريج ما ارتقى إلى هذه المرتبة واستفاد الآداب والتجربة. ولما خرج السلطان من عنده بادر الأمير المشار إليه وقطع السدرة من أصلها؛ خوفًا أن يُبصرها السلطان مرة أخرى ويتذكرها"[26]، فيبدو أن هذا الأمر كان يتكرر كثيرًا إلى درجة أن عقوبة التعليق في الشجرة كانت عقوبة أساسية.

كان الظاهر بيبرس يلقب بـ"إسكندر الزمان"، عاش منذ تنشئته وهو ذو بأس شديد، يتطلع لتحقيق أحلامه، وحين وصل للسلطة قام بإنجازات كثيرة، وإصلاحات عدة، وكان مما أشرف على إصلاحه منارة الإسكندرية سنة ثلاث وسبعين وستمائة، ويقال: إن المنارة تعود لعهد الملك يطليموس الثاني قبل الميلاد[27].

حيث كانت أركان المنارة قد تداعت، ووقع من كثرة السنين جانبٌ كبير من بنيانها "وما فطن لذلك أحد من الملوك، فتوجَّه السلطان متصيِّدًا، ودخل إسكندرية، فرسم بناء ما انهدم منها، ورتَّب البناء مِنْ على الممشى الذي حولها ..."[28].

ومهما قيل في بيبرس من اتهامات، ومهما أخطأ بالفعل من أخطاء؛ فإنه كان عالي الهمَّة، متنقلا بين مصر والشام، ويمارس أعماله بدقة، ويقوم بتشكيل جيوشه ويُشرف على كل صغيرة وكبيرة، ويباشر الحروب بنفسه. فقضى ثمانية عشر عامًا في الحكم، أصلح فيها كثيرًا من الأمور المتدهورة التي انشغل عنها سابقوه، أو التي حدثت بفعل الحروب أو بفعل الإهمال، أو بسبب أشياء استجدَّت في عصره، مثل وجود أجانب كثيرين، وخصوصًا أن الحروب التي خاضها كانت ضد المغول والصليبيين معًا، وسوق الرقيق يمتلئ بأجناس من البشر.

وفي المبحثين القادمين نحاول رصد أبعاد إصلاحاته، من الناحيتين الفكرية والاجتماعية.

---

(26) مختار الأخبار- بيبرس المنصوري. ص12.
(27) آثار الإسكندرية القديمة- د. عزت قادوس. ص150.
(28) الروض الزاهر- لابن عبد الظاهر 448.

المبحث الأول: البُعد الفكري

لاحظ بعض المؤرخين أن الإيمان والعلم يكُونان مع الخلافة أينما كانت، ورأى أن وجودها في مصر أحدث تغييرًا كبيرًا فيها، وصارت مركز العلم الإسلامي، وقد أجمل السيوطي ذلك بقوله: "واعلم أن مصر مِنْ حين صارتْ دار الخلافة عظُمَ أمرُها، وكثُرت شعائرُ الإسلام فيها، وعلَتْ فيها السنة، وعفَتْ منها البدعة، وصارت محلَّ سكن العلماء، ومحطَّ رحال الفضلاء، وهذا سر من أسرار الله أودعه في الخلافة النبوية حيث ما كانت يكون منها الإيمان والكتاب"[(29)].

وإذا كان السلطان الظاهر بيبرس هو الذي استعاد الخلافة العباسية؛ التي كانت تمثل أهل السنة؛ فإنها استمرت طوال عصر المماليك، حيث "تمكنت هذه الخلافة بفضل سلاطين المماليك من أن تحيا بعد موتها مدة قرنين ونصف قرن من الزمان"[(30)].

وهي فترة طويلة، كانت كفيلة بالقضاء على التشيع، وكفيلة أيضًا بتوطيد المذاهب السنيَّة وبازدهار العلوم الإسلامية وغيرها من العلوم والفنون، فهي لم تنتهِ إلا بانتهاء الدولة المملوكية وبداية الدولة العثمانية.

أولا- ترسيخ المذاهب السُّنية الأربعة:

كانت بلاد الشام يسود فيها الشيعة الإسماعيلية فانتشر مذهبهم المعادي للمذاهب السنية الأربعة، وذلك لم يعجب السلطان، فتحرك سنة أربع وستين وستمائة بجنده حتى كسر شوكة الدولة الإسماعيلية، وأخذ بلادهم وحصونهم بالشام[(31)].

فما كان لهم خيار إلا الرضوح والاستلام، والدخول تحت سلطة بيبرس وإمرته، ودفع الجزية، فولى عليهم من ولاته يتولون شؤونهم ويراقبون تحركاتهم، بل صار منهم فيما بعد جنود وفدائيون يقاتلون تحت راية السلطان[(32)].

أما في مصر فقد أغلق بيبرس الأبواب أمام ظهور أي تيار للتشيع، فقام بخطواته المشهورة، وهي أمره "باتباع المذاهب السنية الأربعة وتحريم ما عداها، وأن يأمر ألَّا يولَّى

(29) حسن المحاضرة للسيوطي. جـ2- ص94.
(30) دراسات في تاريخ المماليك البحرية- د. علي إبراهيم حسن. ص242.
(31) تالي كتاب وفيات الأعيان- للصقاعي. ص51.
(32) طائفة الإسماعيلية: تاريخها، نظمها، عقائدها- د. محمد كامل حسين. ص107 و108.

قاضٍ ولا تُقبل شهادة أحد ولا يُرشح لإحدى وظائف الخطابة أو الإمامة أو التدريس ما لم يكن مقلدًا لأحد هذه المذاهب الأربعة"[33].

وكان الفاطميون قد نشروا التشيع عمليًّا بتعيين قضاة من الشيعة، لكنَّ العقائد والمذاهب كانت في تغيُّر منذ بداية الدولة الأيوبية في مصر حتى عهد بيبرس.

وقام صلاح الدين يوسف بن أيوب[34] في وزارته "وأنشأ بمدينة مصر مدرسة للفقهاء الشافعية ومدرسة للفقهاء المالكية، وصرَفَ قُضاة الشيعة كلهم، وفوَّض القضاء لصدر الدين عبد الملك بن درباس الماراني الشافعي[35]، فلم يستنِبْ عنه في إقليم مصر إلا من كان شافعي المذهب، فتظاهر الناس من حينئذٍ بمذهب مالك والشافعي، واختفى مذهب الشيعة الإسماعيلية والإمامية حتى فُقِدَ من أرض مصر كلها. وكذلك كان السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي[36]... حنفيًّا فيه تعصب، فنشر مذهب أبي حنيفة رحمه الله ببلاد الشام، ومنه كثرت الحنفية بمصر، وقدم إليها أيضًا عدة من بلاد الشرق، وبنى لهم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب المدرسة السيوفية[37] بالقاهرة، ومازال مذهبهم يقوى وينتشر ويقوى، وفقهاؤهم تكثر بمصر والشام من حينئذ"[38].

فلما كانت سلطنة الملك الظاهر بيبرس ولَّى بمصر والقاهرة أربعة قضاة مختلفي المذاهب: قاض شافعي وقاض مالكي، وقاض حنفي، وآخر حنبلي. فاستمرَّ ذلك من سنة خمس وستين وستمائة، حتى لم يبق في مجموعة أمصار الإسلام مذهب يُعرف من مذاهب

---

(33) المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك- د. سعيد عاشور. ص171.

(34) صلاح الدين يوسف بن أيوب؛ فهو الملك الناصر، فهو من أشهر المجاهدين في التاريخ الإسلامي، وصاحب موقعة حطين التي أُسِرَ فيها ملك الإفرنج الكبير، وفاتح القدس. ومولده بقلعة تكريت سنة 532هـ، وتوفي ليلة 27 من صفر سنة 589هـ. وانظر في سيرته: سيرة صلاح الدين؛ المسماة بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية لابن شداد. ص308- 310.

(35) هو قاضي القضاة بالديار المصرية، وقد توفي سنة 605هـ. وانظر: النجوم الزاهرة. جـ6- ص196.

(36) من أشهر الملوك المجاهدين، مولده في 19 شوال من سنة 511هـ، وتوفي يوم الأربعاء 11 شوال من سنة تسع وستين وخمسمائة. وقد أفاض ابن الأثير الجزري في ذكر جهاده وزهده ونسكه. وانظر كتابه: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية. ص161- 174.

(37) عُرفت بهذا الاسم من أجل أن سوق السيوفيين كان حينئذٍ على بابها، أما في عصر المقريزي فكان على بابها الصنادقية. وانظر: المواعظ والاعتبار. جـ3- ص443.

(38) المواعظ والاعتبار للمقريزي. جـ3- ص389 و390.

أهل الإسلام سوى هذه المذاهب الأربعة وعقيدة الأشعري. وعملت لها المدارس والخوانك[39] والزوايا[40] والربُط[41] في سائر ممالك الإسلام، وعُودِيَ مَنْ تمذهب بغيرها وأُنكر عليه. ولم يُوَلَّ قاضٍ ولا قُبلت شهادة أحد ولا قُدم للخطابة والإمامة والتدريس أحد ما لم يكن مقلدًا لأحد هذه المذاهب.

وأفتى فقهاء هذه الأمصار طوال هذه المدة بوجوب اتباع هذه المذاهب وتحريم ما عداها[42]، وفي عهد الفاطميين توقف المذهبُ الحنفي، وحكمُ القضاة الحنفية وسائر المذاهب في مصر أكثر من 300 سنة، وحل محله المذهب الشيعي، وذاع صيت قضاة الشيعة وأنصارهم.[43]. وانتشرت أماكن وجود التشيع في صعيد مصر أيام العبيديين كما في أدفو، وأسنا، وأُسْفُون، وأرمنت[44]. وظل الفكر الشيعي منتشرًا في تلك الأماكن وغيرها زمنا طويلًا حتى زال وقلَّ واضمحل، ولله الحمد والمنة، فنَمت بعد ذلك المدارس الإسلامية السنية وانتشرت.

يقول الأدفوي معتزًّا بتلك المدارس في حديثه عن المدارس في الإقليم الجنوبي من مصر في عصره، والتي كانت؛ بحق؛ مفخرة من مفاخر مصر، حيث ازدهرت فيها العلوم الإسلامية، على مذاهب أهل السنة، فيقول: "وبقوص ستة عشر مكانًا للتدريس، وبأُسوان ثلاثة مواضع، وبأسنا مدرستان، وبالأقصر مدرسة، وبأرمنت مدرسة، وبقنا مدرستان، وبهُوّ مدرسة، وبقَمُولا مدرسة، الجملة ثمانية وعشرون موضعًا، ولا يوجد ذلك بالوجه القبلي ولا البحري من ديار مصر في غير هذا الإقليم"[45].

---

(39) الخوانك؛ أو الخوانق: هي من العمائر الدينية الهامة التي كثر انتشارها في مصر في العصر المملوكي إلى جانب الجامع والمدرسة، وجعلت لإيواء الصوفية المنقطعين للعبادة، وقد ذاع انتشار الخانقاوات في العالم الإسلامي- وخصوصا إيران- منذ القرن الرابع للهجرة. ولكن خوانق مصر المملوكية تطورت في القرن الثامن للهجرة، فقد أضيفت إليها وظيفة التدريس بجانب وظيفتها الأصلية. وانظر: مساجد مصر وأولياؤها الصالحون. جـ3- ص9 و12.

(40) جمع الزاوية، وهي تُطلق على كل مسجد صغير فيه أحد الرجال المشهورين بالتقوى والصلاح والعبادة، يقوم بوظيفة الوعظ والإرشاد لمن يتردد عليه، ولا يوجد فيه منبر أو مئذنة، وقد يوجد فيه محراب. وانظر: معجم الألفاظ التاريخية. ص85.

(41) الرُّبُط؛ أو الأربطة، أو الرباطات: جمع الرباط، وهو بيت الصوفية ومنزلهم. وانظر: المواعظ والاعتبار. جـ3- ص600 و601.

(42) المصدر السابق. جـ3- ص390.

(43) النجوم الزاهرة. جـ7- ص132.

(44) الطالع السعيد للأدفوي. ص37- 41.

(45) المصدر السابق. ص44 و45.

والسلطان الظاهر بيبرس كان يعي جيدًا ما تفعله المدارس التي تُخرِّج علماء، فأولاها عنايته، بالإنشاء أو التجديد، مع تعيين مدرسين، وإعداد أماكن التعليم فيها، وأماكن سكنى الطلبة، وحبس أوقاف تكفي للإنفاق عليها لضمان استمرارها في تأدية وظيفتها. وقد أردتُ إبراز بعض جهوده في إنشاء أو إصلاح مدارس؛ أو مساجد تؤدي دور المدارس؛ فجعلتُ للمؤسسات التعليمية في عصر بيبرس حديثًا خاصًا.

ثانيًا- التعليم:

أعظم دليل على النشاط العلمي في عصر المماليك كثرة المدارس التي أنشأها السلاطين، من عهد السلطان بيبرس فصاعدًا حتى السلطان الغوري[46]؛ الذي هو آخر سلاطين المماليك، ثم بدأ بعده الوجود العثماني في مصر.

وبناء المدرسة بتصميمها الخاص وبنظامها المدرسي، والمرتبات التي قُررت لأساتذتها وطلبتها، وتعيين المدرسين والمعيدين بها والمراقبين لطلبتها، والأوقاف التي رصدت عليها، وتخصيص أماكن لإقامة الطلبة بها "لم يكن ذلك معروفًا في مصر حتى نهاية الدولة الفاطمية، ولمَّا كانت السلطة مركَّزة في وزرائها حينئذٍ؛ فقد انتهزوا الفرصة للقضاء على التشيع، وأنشأوا المدارس للمذاهب السنية"[47].

وقد بدأ الظاهر بيبرس بوضع أساس جديد للتعليم في عهده، يُضاف إلى ما بدأه الأيوبيُّون، لتخريج علماء على المذاهب الأربعة، وكانت المدارس والكتاتيب والمساجد هي الأمكنة المعَدَّة لتلقي العلم.

وكانت المدارس في ذلك العصر "تمثِّل المعاهد العليا أو الجامعات في عصرنا"[48].

فلما أنشأ بيبرس مدرسته، وجعل بها خزانة كتب؛ ألحق بها مكتبًا للأطفال، وجعل له أوقافًا "للعناية بأمر الأيتام وتعليمهم وتوزيع الغذاء والكساء عليهم"[49].

---

(46) المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك- د. سعيد عاشور. ص158.

(47) نشأة المدارس بمصر- حسن عبد الوهاب - مجلة (منبر الإسلام)- القاهرة- السنة التاسعة عشرة، العدد 7- رجب 1381هـ- ص90.

(48) المرجع السابق. ص167.

(49) السابق. نفس الصفحة.

ولا نستطيع حصر ما بناه بيبرس أو جدَّدَه من مبانٍ، بل قيل إنه "بُنِيَ في أيامه بالديار المصرية ما لم يُبْنَ في أيام الخلفاء المصريين ولا ملوك بني أيوب؛ من الأبنية والرِّباع والخانات والقواسير[50] والدور والمساجد والحمَّامات"[51].

والذي يهمنا هنا الآن أنه بنى مدرسةً وكُتَّابًا، وأعاد الجامع الأزهر، وبنى مسجدًا بالحسينية. وهو ما يحتاج إلى تفصيله.

أ- المدرسة الظاهرية والكتَّاب:

من أهم منشآت بيبرس؛ المدرسة الظاهرية في خَطِّ بين القصرين بالقاهرة (شارع المعز الآن)، ويُطلق عليها البعض "المدرسة السعيدة"، التي صارت منارًا لطلاب العلم، يفد إليها الطلاب ينهلون العلم، فأنشأها السلطان، ولم يشرع في بنائها حتى رتَّبَ أمور أوقافها، وكتب إلى الأمير جمال الدين بن يغمور[52] بأن لا يستعمل فيها أحدًا إلَّا بأجرته"[53].

فأوقف عليها بيبرس رَبْع السلطان خارج باب زويلة وباب الفرج، والمعروف بخَطِّ تحت الرَّبع، وعدة حوانيت، وأوقف عليها خزانة كتب حمل إليها أمهات الكتب في سائر العلوم والمذاهب[54].

وتمت عمارة المدرسة في أوائل سنة اثنتين وستين وستمائة "ورتب في تدريس الإيوان القِبْلي القاضي تقي الدين محمد بن الحسين بن رَزين الشافعي[55]، وفي تدريس الإيوان الذي يواجهه القاضي مجد الدين عبد الرحمن بن العديم[56]، والحافظ شرف الدين

---

(50) القواسير: جمع قيساريَّة؛ وهي الخان الكبير الذي يشغله جماعة من التجار. وانظر: معجم الألفاظ التاريخية. ص126.

(51) النجوم الزاهرة. جـ7- ص24.

(52) هو الأمير أبو الفتح جمال الدين موسى بن يغمور، مولده سنة 599هـ، في قوص بصعيد مصر، وتنقل في الولايات الجليلة، مثل: نيابة السلطنة بالقاهرة، ونيابة دمشق، وكان مقربا من الظاهر بيبرس، وكانت وفاته في مستهل شعبان سنة 663هـ. وانظر: المصدر السابق. جـ7- ص218 و219.

(53) الروض الزاهر. ص90.

(54) المدارس في مصر في عصر دولة المماليك. ص166.

(55) ولد سنة 603هـ، بحماة، ومن وظائفه: أنه ولي بدمشق إمامة دار الحديث الأشرفية، ثم تدريس الشامية البرانية، ثم وكالة بيت المال بدمشق. ثم انتقل إلى القاهرة وأعاد بقبة الشافعي، ثم درَّس بالمدرسة الظاهرية، ثم ولي قضاء القضاة، وتدريس الشافعي، وامتنع أن يأخذ على القضاء أجرًا. وتوفي سنة 680هـ. وانظر: طبقات الشافعية الكبرى. جـ8- ص47 و48.

(56) هو الحلبي ثم الدمشقي الحنفي، ولد سنة 614هـ، ولي قضاء الحنفية بدمشق، وولي الخطابة بجامع القاهرة الكبير، وهو أول حنفي وليه. وتوفي في ربيع الآخر سنة 677هـ. البداية والنهاية. جـ17- ص548.

الدمياطي[57] لتدريس الحديث في الإيوان الشرقي، والشيخ كمال الدين المحلي[58] في الإيوان الذي يقابله لإقراء القرآن بالروايات والطرق، ثم رتَّبَ جماعة يُقرئون بالسبع بهذا الإيوان أيضًا بعد صلاة الصبح، ووقف عليها خزانة كتب، وبنى إلى جانبها مكتبًا لتعليم الأيتام وأجرى عليهم الخبز في كل يوم، وكسوة الفصلين وسقاية تُعين على الطهارة"[59].

وكانت تعج هذه المدرسة بطلاب العلم، الذين يتواجدون في خلاويها وأروقتها، حيث يُفهم من أخبارها وبنائها أنها كانت مدرسة داخلية يبيت فيها الطلبة[60].

وتُعَدُّ فكرة إنشاء مساكن للطلبة والمدرسين ميزة من مميزات النظام التعليمي الإسلامي، وكان الاهتداء لمثل هذه الفكرة قد حقق انقطاع الطلبة التام للعلم والتحصيل والفائدة، وهذا النظام هو خير ما يمكن تقديمه للطلبة الغرباء والفقراء، حيث كانوا يجدون فيها راحتهم وأمنهم واستقرارهم، فكان من مكملات المدرسة إنشاء بيوت خاصة للطلبة والمدرسين ملحقة ببناء المدرسة[61].

وكانت المدرسة الظاهرية من المدارس المملوكية المشهورة بجودة مساكنها، حيث كان للناس في سكناها رغبة عظيمة، ويتنافسون فيها تنافسًا يرتفعون فيه إلى الحكام[62].

ب- الجامع الأزهر:

---

(57) هو: أبو محمد عبد المؤمن بن خلف الدمياطي. ولد في نهاية سنة 613هـ، وهو حامل لواء صناعة الحديث. جمع معجمًا لمشايخه الذين لقيهم بالحجاز وبالشام وبالجزيرة والعراق ومصر، يزيدون على ألف وثلاثمائة شيخ. وتوفي سنة 705هـ. وانظر: المصدر السابق. جـ18- ص60 و61.

(58) هو: أبو العباس أحمد بن علي المقرئ الضرير، ولد بالمحلة، ومات بالقاهرة سنة 672هـ، عن بضع وخمسين سنة. وانظر: معرفة القراء الكبار للذهبي. مج2- ص685.

(59) النجوم الزاهرة. جـ7- ص120 و121.

(60) مساجد مصر وأولياؤها الصالحون- د. سعاد ماهر. جـ3- ص30.

(61) المدارس في مصر في عصر دولة المماليك. ص115.

(62) المرجع السابق. ص116.

قرر بيبرس إصلاح الجامع الأزهر، وتجديده وإقامة الجمعة فيه، وتهيئته للقيام بدوره الريادي التعليمي، ويمكن أن يُقال؛ بحق؛ إن الجامع الأزهر استعاد أهميته ومجده في عصر سلاطين المماليك[63].

ولم يقتصر أمر إعادة الخطبة على الجامع الأزهر وحده، بل شمل عدة جوامع مثل جامع الحاكم، وجامع ابن طولون، وكانوا مهجورين من أيام الخلفاء الفاطميين[64].

وتمت تهيئة جامع الأزهر وإعادة الخطبة فيه، في يوم الجمعة ثامن عشر ربيع الأول سنة خمس وستين وستمائة؛ فأقيمت الجمعة بالجامع، ومن أسباب تلك التهيئة أن الأمير عز الدين الحلي[65] جار هذا الجامع مدة سنين، فرعى له حرمة الجار، ورأى أن يكون كما هو جاره في دار الدنيا أنه غدًا يجاوره ثوابه في تلك الدار، فانتزع له أشياء من أوقاف كانت مغصوبة في أيدي جماعة، وحاط أموره حتى جمع له شيئًا جيدا.

وتبرع الأمير عز الدين له بجملة من المال الجزيل، واستطلق له من السلطان جملة من المال، وشرع في عمارته، فعمر الواهي من أركانه وجُدرانه، وبيَّضه، وبلَّطه، وأصلح سقوفه، وفرشه، وصار حرمًا في وسط المدينة، واستجدَّ به مقصورة حسنة، وأثر فيه آثارًا صالحة يُثيبه الله عليها[66].

---

(63) المجتمع المصري- د. سعيد عاشور. ص178.

(64) بدائع الزهور لابن إياس. جـ1- ق1- ص312.

(65) كان الأمير عز الدين أيدمر بن عبد الله الحلي الصالحي؛ من أكابر الأمراء وأحظاهم عند الملوك، ثم عند الملك الظاهر، وكان يستنيبه إذا غاب، فلما كانت سنة 667هـ؛ أخذه معه، فكانت وفاته بقلعة دمشق، وحضر السلطان عزاءه بجامع دمشق. انظر: البداية والنهاية. جـ17- ص484.

(66) الروض الزاهر لابن عبد الظاهر. ص277. وفي مختار الأخبار لبيبرس المنصوري: (وفي يوم الجمعة ثامن ربيع الأول). وانظر: مختار الأخبار. ص34. وفي عقد الجمان للعيني: (في ثامن عشر ربيع الأول). وانظر: عقد الجمان (عصر سلاطين المماليك). جـ2- ص6. وبالاطلاع على كتاب "التوفيقات الإلهامية" لمحمد مختار باشا؛ نجد أن ربيع أول سنة 665هـ، يبدأ يوم الثلاثاء، وأن يوم 18 هو يوم الجمعة، أما اليوم الثامن فهو يوم الثلاثاء، فيكون لفظ (عشر) قد سقط من نسخة كتاب ابن عبد الظاهر ونُقِلَ هذا الخطأ. وانظر: التوفيقات الإلهامية- محمد مختار باشا. جـ1- ص698.

ويأتي الدور التعليمي للجامع الأزهر؛ وهو الدور الأساسي له؛ حيث أقام فيه الأمير بدر الدين بيليك الخِزندار الظاهري[67] "مقصورة كبيرة، ورتَّب فيها مدرسًا وجماعة من الفقهاء على مذهب الإمام الشافعي، وإن كان مذهبه حنفيًّا، ورتب في هذه المقصورة محدِّثًا يُسمِعُ الحديث النبوي، والرقائق، وسبعًا لقراءة القرآن، وأوقف على ذلك أوقافًا، وأقيمت الجمعة فيه، وحضر الأتابك والصاحب[68]، وجماعة من الأمراء والكبراء، وكانت جمعة مشهودة. وكُتبت فتيا في جواز الجمعة في الجامع المذكور، وأُخِذَتْ خطوط العلماء بجواز ذلك، ووجد الناس به رفقًا وراحة لقربه"[69].

جـ- جامع الظاهر بيبرس خارج الحسينية:

أمر السلطان بيبرس بعمارة جامع الحسينية، وقرر له خطيب حنفي يقوم بالخطبة وإلقاء الدروس والوعظ، ويؤم الناس في الصلاة ويفتيهم في أمور دينهم[70].

ويوجد بهذا الجامع مجموعة من اللوحات التأسيسية من الرخام، إحداها أعلى عتبة باب المسجد، مكتوب عليها: "بسم الله الرحمن الرحيم إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين. أمر بإنشاء هذا الجامع المبارك مولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين صاحب القبلتين الآمر ببيعة الخليفتين خادم الحرمين الشريفين أبو الفتوح

---

(67) هو الأمير الكبير، نائب الملك الظاهر بيبرس، وأتابك الجيوش المنصورة، وقد توفي سنة 676هـ، بعد بيبرس، حيث قاد العساكر في رجوعه إلى مصر، وتمت تولية ابن بيبرس مكان أبيه، ثم مرض برهة لطيفة ومات، فكان أجله وأجل أستاذه متقاربيْن، وكانت المدة بينهما شهرًا وأيامًا. وانظر في ترجمته مؤلفات بيبرس المنصوري: مختار الأخبار. ص64. التحفة الملوكية. ص86. زبدة الفكرة. ص162. والخِزندار؛ بكسر الخاء: لفظ مركب من (خِزَانة) وهي ما يخزن فيه المال، وكلمة (دار) ومعناها ممسك، والمقصود: ممسك الحزانة، وهو لقب للذي يتحدث على خزانة السلطان أو الأمير أو غيرهما. وانظر: معجم الألفاظ التاريخية. ص68.

(68) هو أتابك العسكر، وهو أكبر الأمراء المقدمين بعد النائب في الدولة المملوكية. والصاحب: هو صاحب الديوان، وهو مصطلح كان يُطلق على متولِّي الديوان؛ كديوان الإنشاء أو ديوان الخاص أو غيرهما. وانظر: المعجم الجامع في المصطلحات. ص 14 و134.

(69) الروض الزاهر. ص277.

(70) البداية والنهاية. جـ17- ص469 و470. تاريخ الخلفاء. ص728.

بيبرس الصالحي قسيم أمير المؤمنين خلد الله ملكه وذلك بتاريخ الرابع عشر من ربيع الآخر سنة خمس وستين وستمائة"[71].

ظلَّت الشعائر الدينية مقامة بهذا الجامع "ولم تُعَطَّلْ إلا منذ أوائل القرن السادس عشر الميلادي، وذلك لاتساع رقعته وعجز الدولة عن الصرف عليه"[72].

أي أنه ظلت الشعائر تقام فيه حتى نهاية الدولة المملوكية، وبداية الدولة العثمانية.

وقد كان العامل الأهم في استمرار منشآت الظاهر بيبرس التعليمية؛ هو الأوقاف التي كانت تُوقف على تلك المنشآت. حيث خصص لها "وقف الأحباس"، وهو نوع من الوقف، حيث تُحبَس العين من أن يملكها أحد، ويُتصدَّق بمنفعتها على الجوامع والمدارس والأربطة والخانقاوات. ويشرف عليها ناظر الأحباس.

وقد تمَّ في عهد وزارة الصاحب بهاء الدين بن حِنَّا[73] في عهد الظاهر بيبرس؛ الفصل بين الأوقاف والأحباس، فأصبح من اختصاص ناظر الأحباس الإشراف على الجوامع ويساعده عدد من المباشرين، بينما أصبح للأوقاف ديوان خاص منفصل عن ديوان الأحباس، حيث يتولى صاحب ديوان الأحباس توزيع الصدقات من ريع الأراضي على المؤسسات الدينية والتعليمية[74].

ثالثًا- مكانة العلماء والأدباء

كانت فترة حكم الظاهر بيبرس أساسًا صالحًا لحياة ثقافية وفكرية أكثر نشاطًا، بل كانت سببًا لحياة علمية مزدهرة طوال عصر المماليك، وكان السلطان يجل العلماء والقضاة والصالحين وغيرهم من أرباب العلوم والآداب والفنون، ويحترمهم لدرجة مثوله أمام القاضي هو وخصمه على السواء كما تطلَّب الشرع ذلك.

[71] جامع الظاهر بيبرس البندقداري- محمد عبد العزيز مرزوق- مقال بالمجلة التاريخية المصرية- المجلد الثالث - الجزء الأول. ص94.

[72] مساجد مصر- د. سعاد ماهر. جـ3- ص33.

[73] وزير الملك الظاهر وولده السعيد، إلى أن توفي في ذي القعدة 677هـ. وانظر: البداية والنهاية. جـ17- ص548.

[74] المدارس في مصر في عصر دولة المماليك. ص156 و157.

وقد تناقل عدد من المؤرخين أنه رُفعَتْ قصة إلى القاضي تاج الدين بن بنت الأعز[75] في الملك الظاهر بيبرس، أنَّ لشخصٍ من الأمراء عليه دعوة بسبب بئر، فطلبه القاضي برسول إلى المدرسة الصالحية، ووقف هو وغريمه بين يدي القاضي، وادَّعى عليه ذلك الأمير، وكان الحق بيد الملك الظاهر، وله بيّنة عادلة، فحكم القاضي بالبئر للملك الظاهر، ونزع البئر من يدي غريمه، وأسلمها له"[76].

كما يظهر مدى احترام السلطان بيبرس للعلماء- أيضًا- حين يزور الشيخ القباري زاهد الإسكندرية وينزل عند شروطه التي اشترطها للمقابلة[77].

وقد بلغ العلماء في العصر المملوكي منزلة رفيعة للغاية، حيث إن مجلس الجيش يحضره القضاة الأربعة، قبل خوض أي حرب. فقد كان المعتاد أن "يُعقد مجلس الجيش برياسة السلطان وعضوية أتابك العساكر والخليفة وقُضاة المذاهب الأربعة وأمراءُ المئين[78] الذين بلغ عددهم أربعة وعشرين أميرًا، وكان الغرض من عقد هذه المجالس الاستنارة بآراء كبار الدولة قبل الإقدام على حرب من الحروب وجَعْل إعلان الحرب أمرًا مشروعًا، وهنا يأمر السلطان باستدعاء الجنود من مختلف جهات مصر"[79].

ورغم حب السلطان بيبرس للعلماء إلا أن بعض المؤرخين ذكروا قصة خلاف بين السلطان والإمام النووي، ومختصر القصة أن السلطان بيبرس غضب ذات مرة من نصيحة

---

(75) هو عبد الوهاب بن خلف بن بدر العلامي. ولي قضاء القضاة بالديار المصرية، والوزارة والنظر وتدريس قبة الشافعي، والصالحية، والخطابة، والمشيخة، واجتمع له من المناصب ما لم يجتمع لغيره. ولد في مستهل رجب سنة 604هـ، وتوفي ليلة السابع والعشرين من رجب سنة 665هـ. والأعز الذي يُنسب إليه هو الأعز بن شكر؛ وزير الملك الكامل بن أيوب. وانظر: طبقات الشافعية الكبرى. جـ8- ص318-323.

(76) الخبر مفصل في: حُسن المناقب لشافع بن علي. ص75- 77. مختار الأخبار لبيبرس المنصوري. ص14. ونقلناه مختصرًا عن: بدائع الزهور لابن إياس. جـ1- ق1- ص312.

(77) حُسن المناقب السرية. ص65. والقبَّاري: هو الشيخ الصالح محمد بن منصو بن يحيى القبَّاري الإسكندراني، وكانت وفاته بالإسكندرية في سادس شعبان سنة 662هـ، وله خمس وسبعون سنة. وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويردع الولاة عن الظلم، فيسمعون منه ويطيعون، وإذا جاء الناس إلى زيارته إنما يكلمهم من طاقة المنزل، وهم راضون منه بذلك. وانظر: البداية والنهاية. جـ17- ص456.

(78) أمراء المئين: جمع (أمير مائة) وهي رتبة عسكرية مملوكية يحملها أمير يرأس مائة فارس وألف جندي، وأصحاب هذه الرتبة من أكابر أرباب الوظائف والولاة والنواب. وانظر: المعجم الجامع. ص24.

(79) دراسات في تاريخ دولة المماليك البحرية – د. علي إبراهيم حسن. ص303.

الإمام النووي لرفضه التوقيع على فتوى للعلماء بجمع المال للحرب؛ والقصة تدل على بشرية السلطان يقع في الخطأ والصواب مع ما يتحلى به من سيرة عطرة[80].

وعلى جانب آخر؛ نجد الظاهر بيبرس قد اشتهر بتقريب أهل الكمالات، والعلوم والفنون وكان شغوفًا بسماع التاريخ، ويذكر عنه أنه "يحب أن يطَّلع على أحوال أمرائه وأعيان دولته حتى لم يَخْفَ عليه من أحوالهم شيء. وكان يُقرِّبُ أرباب الكمالات من كل فن وعلم. وكان يميل إلى التاريخ وأهله ميلا زائدًا ويقول: سماع التاريخ أعظم من التجارب"[81].

وكان يحترم الأطباء العلماء، ويقربهم ويجلهم، ومنهم: مهذب الدين أبو سعيد محمد أبو حليقة؛ وقد جاء في وصفه كلام كثير أجتزئ منه بعض العبارات ".. وقد منحه من العقل أكمله ومن الأدب أفضله، ومن الذكاء أغزره، ومن العلم أكثره، فقد أتقن الصناعة الطبية، وعرف العلوم الحكمية، وكان مصاحبًا للجيش مع السلطان الملك الظاهر بيبرس، وهذا دليل على ما لقيه هذا الطبيب العالم من الظاهر بيبرس من غاية الاحترام وأوفر الإنعام، والمنزلة الجميلة، والعطايا الجزيلة، فلم يزل مهذب الدين أبو سعيد محمد ملازمًا للاشتغال، محمود السيرة في الأقوال والأفعال، وقد قرأ مهذب الدين أبو سعيد على أبيه الصناعة الطبية، وحرَّر أقسامها الكلية والجزئية، وحصَّل معانيها العلمية والعملية، وخدم السلطان الملك الظاهر بيبرس الملكي الصالحي بصناعة الطب"[82].

وطبيب عالم آخر هو شهاب الدين بن فتح الدين، وقيل عنه: "هو سيد العلماء ورئيس الأطباء، علامة زمانه، وأوحد أوانه، قد جمع الفضائل، وتميز على الأواخر والأوائل، وأتقن الصناعة الطبية علمًا وعملًا، وحررها تفصيلا وجملا، وهو علامة وقته في حفظ الصحة ومراعاتها، وإزالة الأمراض وعلاجاتها، وقد اقتفى سيرة آبائه، وفاق نظراءه في همَّته

---

(80) انظر مراسلات الإمام النووي للظاهر بيبرس، واختلافه معه؛ في: حسن المحاضرة للسيوطي. جـ2- ص97- 105. والإمام النووي: هو العلامة محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، شيخ المذهب الشافعي وكبير الفقهاء في زمانه. ولد بنَوَى؛ قرية من قرى حوران؛ سنة 631هـ، وتوفي 676هـ، ومناقبه- رحمه الله- كثيرة، ومؤلفاته مما لا يُستغنى عنه، منها: شرح مسلم، تهذيب الأسماء واللغات، الأذكار، وكتاب الأربعين النووية. وانظر: طبقات الشافعية الكبرى. جـ8- ص395- 400. البداية والنهاية. جـ17- ص540 وما بعدها.

(81) النجوم الزاهرة. جـ7- ص182.

(82) عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة. ص598 و599.

وإبائه... ومقامه في الديار المصرية، وخدم بصناعة الطب الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الملك الصالح صاحب الديار المصرية والشامية"[83].

واشتهرت دولة السلطان بيبرس بالكتابة الديوانية الراقية التي كان يكتبها منشئون على مستوًى أدبي رفيع، مثل: الصاحب فخر الدين إبراهيم بن لقمان الإسعردي[84]، الذي كتب للمعز أيبك؛ أول ملوك الدولة التركية، ثم كتب للمظفر قطز، ثم للظاهر بيبرس. وكذلك محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر[85]، الشاعر الناثر[86].

فمن أجناس الأدب في هذا العصر "النثر الفني والنظم، وقد تجلى الأول في الرسائل الصادرة عن ديوان الإنشاء باسم السلطان وتُرسل إلى حلفائه من الملوك والأمراء، وإلى الولاة والعمال في الأقاليم، وكان يُعنى بتزيين الألفاظ وتجميلها بالسجع وغيره من ضروب التحلية.

وأبرز من برع في هذا الفن هو الأديب ابن عبد الظاهر؛ الذي امتازت رسائله بأسلوب جذاب، فقرَّبه السلطان الظاهر بيبرس، وعينه كاتبًا بديوان الإنشاء، كما كان يختاره لبعض المهام الخطيرة"[87].

لقد ابتهج العلماء والشعراء بالأحداث العلمية وبالمنشآت التي تُنسب للظاهر بيبرس، وعبروا عن بهجتهم بها.

وقد ذكر المؤرخون افتتاح المدرسة الظاهرية سنة اثنتين وستين وستمائة، حيث اجتمع بها أهل العلم والأدباء والفقهاء، ودرَّس المدرسون، واندفع الشعراء يمتدحون هذا الفعل الجليل.

---

(83) المصدر السابق. ص585 و586.

(84) هو رأس الموقعين وأستاذ الوزراء، ولد 612هـ، وتوفي سنة 693هـ. وانظر: البداية والنهاية. جـ17- ص668 و669.

(85) كاتب الإنشاء بالديار المصرية، وواضع سيرة الملك الظاهر بيبرس. وتوفي سنة 692هـ وقد جاوز السبعين. وقد اعتمد هذا البحث على بعض كتبه. وانظر ترجمته في: البداية والنهاية. جـ17- ص262.

(86) انظر: الثغر الباسم في صناعة الكاتب والكاتم- شمس الدين السحماوي. ص73.

(87) وسائل الترفيه في عصر سلاطين المماليك في مصر- لطفي أحمد نصار. ص58.

وذكر العيني ما أنشده في هذه المناسبة كبار شعراء العصر، وهم: السراج عمر الوراق[88]، والجمال يوسف بن الخشاب، وأبو الحسن الجزار[89]. وقال: "فشُرِّف الشعراء المذكورون ووُصِلُوا"[90].

أما تشريف الشعراء؛ فالتشريف هو ما يقابل في عصرنا الوسام[91].

(88) هو الأديب سراج الدين أبو حفص عمر بن محمد بن الحسين المصري المعروف بالسراج الوراق. ولد سنة 615هـ، ومات سنة 695هـ. وانظر: النجوم الزاهرة. جـ8- ص83 و84.

(89) أبو الحسن الجزار؛ أو أبو الحسين: هو الشاعر المصري جمال الدين يحيى بن عبد العظيم بن يحيى، الشاعر الظريف، المعروف بالجزار، مدح الملوك والوزراء، وتوفي سنة 679هـ. وانظر: البداية والنهاية. جـ17- ص569 و570.

(90) عقد الجمان (عصر سلاطين المماليك) جـ1- ص382- 384.

(91) انظر: معجم الألفاظ التاريخية. ص45.

المبحث الثاني: البُعد الاجتماعي

بعد استعراضنا للأوضاع الفكرية وإصلاحات بيبرس فيها، وبعد أن تبيَّن لنا أن انتقال الخلافة العباسية إلى مصر جعلها بلدًا للعلم والعلماء، وصار للعلماء كلمة مسموعة عند بيبرس وعند الأمراء؛ يمكننا البحث من الناحية الاجتماعية، وخصوصًا أننا أمام مجتمع ذي تركيبة اجتماعية معقدة، لا تظهر فيه الشرائح الاجتماعية المصرية عند المؤرخين إلا قليلًا، كما أن الأحداث المتغيرة والمتسارعة؛ بفعل الحروب وغيرها؛ جعلت الحياة الاجتماعية أقل بروزًا على السطح.

ولذلك فإنه من المناسب استعراض شكل المجتمع الذي كان يعيش في مصر آنذاك، وأن نعرض بعض الظواهر السلبية والأمراض الاجتماعية والطريقة التي حسم بها الظاهر بيبرس تلك المشكلات.

أولا- طبقات المجتمع في مصر:

حاول المقريزي تقسيم الناس الذين يعيشون في مصر في عصره إلى طبقات، فقسمهم- مراعيًا النواحي الاقتصادية والمعيشية الخاصة بهم- إلى سبعة أقسام، وليس معنى ذلك أن كل قسم يضم أناسًا يعيشون بطريقة موحدة وفي ظروف واحدة، وإنما هي أقسام كبرى قام بتفصيلها بعد ذلك، وهي: "القسم الأول: أهل الدولة. والقسم الثاني: أهل اليسار من التجار وأولي النعمة من ذوي الرفاهية. والقسم الثالث: الباعة؛ وهم متوسطو الحال من التجار؛ ويُقال لهم أصحاب البَزِّ، ويلحق بهم أصحاب المعايش؛ وهم السوقة. القسم الرابع أهل الفلح؛ وهم أهل الزراعات والحرث، سكان القرى والريف. والقسم الخامس: الفقراء؛ وهم جُلُّ الفقهاء وطلاب العلم، والكثير من أجناد الحلقة[92] ونحوهم. والقسم السادس: أرباب الصنائع والأجراء أصحاب المهن. والقسم السابع: ذوو الحاجة والمسكنة؛ وهُم السُّؤَّال الذين يتكففون الناس ويعيشون منهم"[93].

---

(92) أجناد الحلقة: هم الجنود المرتزقة من غير مماليك السلطان، ولكل أربعين جنديًا يُقدم عليهم واحد منهم، ليس له حُكم إلا إذا خرجوا إلى الحرب أو السفر فحينئذٍ يقودهم مقدمهم. وانظر: المرجع السابق. ص12.

(93) إغاثة الأمة للمقريزي. ص147.

أما تقسيم المقريزي فهو- رغم شموله- يُغفل ذكر أرباب الوظائف الديوانية من المسلمين والذميين، كما يُغفل الأعراب، مع ما لهاتين الطائفتين من أهمية في عصر المماليك. غير أنه جعل هذا التقسيم في معرض موضوع اقتصادي، ولعله أدمج الأعراب في أهل الفلح، كما أدمج أرباب الوظائف الديوانية في مختلف الطبقات التي عاشوا فيها(94).

وحاول بعض المؤرخين المعاصرين تقسيم سكان مصر في هذا العصر تقسيمًا جديدًا يمكن أن يُظهِرَ طبقاته، فقسمه إلى فئات ثمانٍ؛ هي: "المماليك، والمعمَّمون، والتجار، وطوائف السكان وأرباب المهن في المدن، وأهل الذمة، والفلاحون، والأعراب، والأقليات الأجنبية"(95).

وليس من المناسب تفصيل تلك الأقسام، وإنما يكفي الاقتصار على رؤية الفروق الاقتصادية الكبيرة بين طائفة قليلة؛ هي طائفة المماليك؛ وبقية المجتمع. وعليه فإننا نلاحظ أن حياة البذخ التي كان يعيشها المماليك ونساؤهم لا تمثل إلا طبقة واحدة، كما أن مقلديهم كانوا من طبقات الأثرياء الذين أشار إليهم المقريزي. ولعل المقصد الأساسي من الإشارة إلى طبقات المجتمع أن تكون تمهيدًا لما يأتي من مسائل يعالجها هذا البحث.

أ- مسامحات بيبرس:

أدرك الظاهر بيبرس أثر الفوارق بين الطبقات، ولذلك كان يحاول علاج تلك المشكلة مع الفقراء والمساكين والغارمين، فحاول إيجاد نوع من التكافل الاجتماعي، وبدأ بنفسه، وكان له صدقات كثيرة، ومن ذلك كل سنة عشرة آلاف إردب قمح للفقراء والمساكين وأرباب الزوايا، وكان يُخرج كل سنة جملة مستكثرة يستفكُّ بها مَنْ حَبَسَ القاضي من المفلسين، وكان يُرتب في أول رمضان مطابخ لأنواع الأطعمة برسم الفقراء والمساكين، ووقف وقفًا على تكفين أموات الغرباء، وأجرى على أهل الحرمين وطرق الحجاز ما كان انقطع في أيام غيره من الملوك، وله أنواع من المعروف وأوقاف البر(96).

(94) المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك. ص15.
(95) المرجع السابق. ص16.
(96) حسن المحاضرة. جـ2- ص96.

وقد سامح الطبقات الاجتماعية المختلفة في كثير من الضرائب، ومن مسامحاته وإسهاماته حين تولى السلطنة واستقر له الأمر؛ أنه "أبطل عن الرعية ما كانوا مطلوبين به، من التصقيع[97]، والتقويم[98]، والخُمس، والزكاة المعجلة، والجوالي المعجلة[99]، والتبرع، والراجل[100]، والدينار[101] وغير ذلك، فكانت جملته ستمائة ألف دينار، وكُتِبَتْ بذلك مسامحات قُرئت على المنابر"[102].

وفي سنة إحدى وستين وستمائة، "دخل الإسكندرية في مستهل ذي القعدة، ورسم بردِّ مال السهميْن[103]، وحط عن أهل الثغر ما كان مقررًا من الفائدة، وهو ربع دينار القنطار عن كل ما يباع ويُبتاع"[104].

ب- خطة مواجهة الغلاء:

أما حين حدث الغلاء في شهر صفر من سنة اثنتين وستين وستمائة؛ فقد دخل السلطان بيبرس في دار العدل ليدير خطة لمواجهة الغلاء؛ الذي لن يحس به الأغنياء، فأدار تلك الأزمة الإنسانية، والمشكلة الكارثية رحمةً بالفقراء، وسدًّا لاحتياجات غير القادرين من ذوي الفاقة، من خلال المتجر السلطاني، فحين غلَتْ أسعار الغلَّة، ووصلت إلى قريب مائة درهم نُقرة[105] الإردب، رسم السلطان بالتسعير طالبًا الرفق، واشتدَّ الحال وعُدِمَ الخبز.

(97) هو إحصاء البيوت والعقارات من أجل فرض ضريبة عليها. وانظر: معجم الألفاظ التاريخية ص45.

(98) هو تقدير قيمة كل بيت لأجل فرض ضريبة. انظر المرجع السابق. ص47.

(99) الجزية المقررة على أهل الذمة (اليهود والنصارى). السابق نفسه. ص56.

(100) يبدو أنها كانت ضريبة على الدواب؛ تلك التي كان قد أحدثها وزير الملك المعز، حيث ذكر المقريزي أنه رتَّب مكوسًا على الدواب من الخيل والجمال والحمير وغيرها، وعلى الرقيق من العبيد والجواري. وانظر: المواعظ والاعتبار. جـ2- ص567.

(101) ضريبة فرضها قطز؛ وبمقتضاها كان يؤخذ من كل واحد من القادرين دينار، بعد أن جمع القضاة والفقهاء والأعيان لمشاورتهم فيما يُعتمد عليه من أمر التتار وأن يُؤخذ من الناس ما يُستعان به على جهادهم، وكان العز بن عبد السلام قد أجازه حينئذٍ بشرط ألا يبقى في بيت المال شيء وأن يبيع المماليك ما لهم من الممتلكات الثمينة؛ فيتساوى الجند والعامة. وانظر: النجوم الزاهرة. جـ7- ص72 و73.

(102) مختار الأخبار. ص13.

(103) كان الملك الكامل الأيوبي قد أخرج من زكوات الأموال التي كانت تُجبى؛ سهمي الفقراء والمساكين وجعلهما مصروفين في مصارفهما، ورتب عليها الرواتب والأجور والمنح للفقهاء والفقراء والصلحاء. وانظر: السلوك للمقريزي. جـ1- ص260.

(104) عقد الجمان (عصر سلاطين المماليك). جـ1- ص363.

(105) الدرهم النُّقرة: يكون ثلثاه من فضة وثلثه من نحاس أحمر، وهو يساوي سبعة أعشار الدينار. وانظر: معجم الألفاظ التاريخية. ص74.

فأمر بالنداء باجتماع الفقراء تحت القلعة، وقعد في دار العدل، وأبطل تسعير الغَلَّة، وكتب إلى الأهراء[106] ببيع خمسمائة أردب كل يوم بما يقدره الله تعالى من وَيبتَيْن[107] فما دونهما على الضعفاء والأرامل، وأمر بإحصاء مَنْ بالقاهرة ومصر وحواضرها من الفقراء، وأخذ لنفسه منهم الوفاء، وأعطى لولده الملك السعيد كذلك، وأعطى كلَّ أميرٍ جماعةً نظير عدته، وعلى الأجناد، والأكابر والتجار، والشهود. وعزل التركمان ناحية، والأكراد والبلديين كذلك، ورسم أنَّ كلَّ مَنْ يخصه فقيرٌ يعطيه مؤنته مدَّة ثلاثة شهور. وفي اليوم الذي جمعهم فيه ليوزعهم؛ أمَرَ لكل منهم بنصف درهم قوت يومه ذلك"[108].

فقد استمرَّ المتجر السلطاني في العصر المملوكي يؤدِّي عمله الذي أنشئ من أجله في العصرين الفاطمي والأيوبي، فكان إنشاؤه لمنع الاحتكار، ولتثبيت حركة الأسواق، وليكسر أي حصار اقتصادي للصليبيين، فيكون ذلك المتجر جاهزًا لتموين الأسواق أو لتموين الجيوش. وقد أمر بيبرس ببيع خمسمائة إردب كل يوم لضعفاء الناس، فانحط السعر وقلَّت الفقراء، واستمر الحال إلى أن دخل المحصول الجديد[109].

فها هو المتجر السلطاني يصير له بُعد اجتماعي في عصر السلطان الظاهر بيبرس، ليحافظ به على ضعفاء المجتمع.

ثانيًا- قضايا تتعلق بالمرأة:

إذا قلنا إن السلطان بيبرس لا يتهاون في القضايا الاجتماعية؛ فإنه أشد ما يكون في القضايا التي تتعلق بالمرأة، وقد رأينا من قبل رحمته بالفقراء والأرامل، لكننا أفردنا بعض القضايا الأخرى للتركيز عليها هنا.

أ- عقوبة التحرش بالمرأة:

---

(106) والأهراء: هي الأماكن التي تُخزَّن بها الغلال للطوارئ، وكانت لا تُفتح إلا للضرورة، وهي تقابل اليوم صوامع الغلال والحبوب. وانظر: المرجع السابق. ص25.

(107) لفظ (ويبتيْن) مثنى؛ مفرده: وَيْبة، وهي مقياس حجمٍ، قدره أربعة وعشرون مُدًّا، أي: ست كيلات. السابق نفسه. ص156.

(108) الروض الزاهر. ص26 و27. زبدة الفكرة. ص87 و88.

(109) المتجر السلطاني في العصر المملوكي- د. عطية القوصي. ص191.

لقد بالغ السلطان بيبرس في عقوبة التحرش بالمرأة- وخصوصًا إذا كان بالغ الإساءة ووصل إلى درجة تعريتها- فصارت العقوبة قطع اليد للفاعل وللمشاهدين الذين لم يُنكروا على الفاعل.

وقد تبيَّن أنه كان يخرج متنكرًا ليطلع على أحوال الناس، فذكر عنه أنه "قطع أيدي جماعة من نواب الولاة والمقدمين والخفراء وأصحاب الرِّباع بالقاهرة، وسببه أنه نزل القاهرة بالليل متنكرًا ليرى أحوال الناس، فرأى بعض المقدمين وقد أمسك امرأة وعرَّاها سراويلها بيده، ولم يجسر أحد أن ينكر عليه"(110).

فإذا عرفنا أن كل أحكامه وعقوباته التي يُنزلها بالناس يُرسل بها برقيات ليسمع بها الناس، فلا نظن أن هذا العقاب الأليم إلا رادعًا لغيرهم، فلا يمكن تصور أن يتسامح الناس في التحرش بالأنثى بعد هذه الحادثة.

ب- الاعتراض على ملابس النساء:

كانت ملابس النساء من أهل السلطان والأمراء غالية الأثمان، وفيها من التفنن والزخارف وأنواع الخامات ما جعل نساء غير السلاطين يقلدن هذه الملابس وملحقاتها. وكانت النساء "يلبسن (البهطلة)، وهو قميص له أكمام واسعة، تبلغ ثلاثة أذرع، و(البغالطيق) وهي الأخرى قمصان قصيرة الكُمِّ أو من غير كُمٍّ؛ وإن كان يُلبَسُ فوق هذه الأخيرة ثوبٌ آخر، و(الإزار) وهو ثوب من الحرير يُغطي كل الجسم. وكانت النساء يلبسن عمومًا (السراويل)- جمع سروال...، وهو لفظ فارسي الأصل، ولا ريب فإن السروال أصل البنطلون الأوربي، وحتى النساء الفاسدات؛ البغايا؛ كُنَّ يلبسن سراويل من أديم أحمر، مع ملاءات"(111).

أما أغطية رءوس النساء المملوكيات وأحذيتهن؛ فكُنَّ "يلبسن الطواقي التي بالغوا فيها وعملوها من الذهب الحرير، والعصائب أو المناديل المزخرفة (المزركشة)، كما يلبسن

(110) عقد الجمان للعيني (عصر سلاطين المماليك) جـ1- ص407.

(111) نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر- د. عبد المنعم ماجد. جـ2- ص85 و86.

في أرجلهن الأخفاف المزخرفة (الزركش)، ذات الهيئة المثمنة، وفوقها ما يغطيها حتى سمانة الرجْل (السرموزة).."[112].

ويبدو أن زي النساء في عصر المماليك كان دائم التغيير على حسب تغيُّر الزي (المودة) وقتذاك، كما كان بعض السلاطين يتدخلون بإرشاداتهم في هذا الزي، حتى لا يخرج عن الحدود "فعُورِضَ زيُّ الأكمام الواسعة؛ الذي كانت النساء قد استحدثْنَهُ، وكان قد زاد عن الحد، كما عُورضَ تشبُّه النساء بالرجال، فمُنِعْنَ من لبس الثياب المفتوحة (الأقبية) القِصار، التي تُظهرهُنَّ مثل الرجال، كما مُنِعْنَ من لبس العمائم الكبيرة، أو كتابة الكتابات الدينية على العصائب، أو المبالغة في أثمان الأخفاف والسرموزة، التي بلغت خمسمائة درهم"[113].

وقد فُسِّر لبس النساء العمائم على أنه تشبُّه لهن بالرجال؛ وهو بالفعل يُظهرهن كالرجال؛ ويبدو أن بعض المقربين من السلطان بيبرس أبلغه بأن النساء يفعلن ذلك؛ حيث "بلغه أن النسوان بالقاهرة ومصر قد لبسن عمائم كعمائم الرجال، وتبَهْرَجْن، وتظاهَرْنَ بزوال الحشمة، فغَارَ لله وأمَرَ أنْ يُنَادَى بأنَّ امرأةً لا تتعمَّم، ولا تتزيا بزي الرجال، ومَنْ فعلتْ ذلك بعد ثلاثة أيام نُهِبَتْ ويُنهَبُ ما عليها من الكسوة"[114].

لكننا لا ندري كيف كانت تتم العقوبة ومن الذي كان يقوم بها، فهل كان المحتسب- مثلا- هو الذي يقوم بذلك، أو تقوم بها امرأة في الأسواق، أم أن هذا مجرد ردع للنساء عن فعل ذلك. إلا أن هذه عقوبة رادعة بالفعل، لأن أثمان تلك العمائم كانت باهظة.

جـ- إبطال الخواطئ والبغاء:

كان الزنا منتشرًا في الديار المصرية في بداية عصر سلاطين المماليك، حتى اعترفت الدولة بالبغايا[115]. وقد أرجع بعض الباحثين تلك الظاهرة إلى "وجود أعداد كبيرة من

(112) المرجع السابق. ص86.
(113) السابق نفسه. ص86 و87.
(114) مختار الأخبار- بيبرس المنصوري. ص26. السلوك- للمقريزي. جـ1- ص503.
(115) انظر: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك. ص249.

الجواري المسيحيات من الفرنج؛ والأرمن بوجه خاص؛ في كثير من المدن المصرية"[116].

وكان لذلك أثره المباشر في "رواج كثير من الأمراض الاجتماعية في ذلك العصر"[117].

فكانت الدولة قد فرضت عليهن ضرائب مقررة، وجمعت من هذه الضرائب أموالا كثيرة، كما جعلت الدولة للبغايا ضامنة تذهب إليها محترفة البغاء لتسجيل اسمها عندها، فضمان الغواني "عبارة عن أخذ مال من النساء الباغيات، فكانت إذا خرجت امرأة للبغاء نزلت عند امرأة تسمى الضامنة"[118].

ويبدو أن السلطان بيبرس اتخذ قرارًا بإبطال الضمان وإلغاء البغاء على مراحل، وفي أماكن متعددة، فوردت تلك الأخبار عند المؤرخين موزعة على سنوات، وعلى أماكن، فهي في الإسكندرية، وفي القاهرة، وفي أنحاء مصر، ثم عمَّت أرجاء مملكته في سائر الجهات المصرية والشامية. ففي ذي القعدة سنة إحدى وستين وستمائة؛ كان بيبرس في ثغر الإسكندرية، فجلس "بدار العدل وبسط المعدلة، وأمر بعد ذلك بتطهير الثغر من الخواطي الفرنجيات"[119].

أما في المرحلة الثانية، فقد ".. أمر السلطان بإبطال ضمان الحشيش، ... ومنع الحانات من الخواطئ، واستتوب العلوق واللواطي، وعمَّ هذا الأمر سائر الجهات المصرية، وبرزت المراسيم الشريفة بمنع ذلك من سائر الجهات بالبلاد الشامية، فطهرت في أيامه سائر البقاع وامتنع الناس من ذلك غاية الامتناع"[120].

أما في المرحلة الثالثة فكان إلغاء الضمان على البغاء من كل الأقطار المصرية، ففي عام سبعة وستين وستمائة "رسم السلطان بإبطال الخواطئ من القاهرة ومصر والديار المصرية، فطُهرت الديار المصرية من هذا المنكر، وكتب إلى جميع البلاد بمثل ذلك[121].

---

(116) الجواري في مجتمع القاهرة المملوكية- د. علي السيد محمود. ص45.
(117) المرجع السابق. نفس الصفحة.
(118) الخطط التوفيقية الجديدة- علي مبارك. جـ1- ص35.
(119) انظر في ذلك: الروض الزاهر. ص176. السلوك للمقريزي. جـ1- ص500.
(120) بدائع الزهور لابن إياس. جـ1- ق1- ص326.
(121) الروض الزاهر. ص350. مختار الأخبار- بيبرس المنصوري. ص40.

"وكتب السلطان بإزالة الخمور وإبطال الفساد والخواطئ من القاهرة ومصر وجميع أعمال مصر، فطهِّرت كلها من المنكر، ونهبت الخانات التي جرت عادة أهل الفساد الإقامة بها، وسلبت جميع أحوال المفسدات، وحُبِسْنَ حتى يتزوجن، ونُفِيَ كثير من المفسدين. وكتب السلطان إلى جميع البلاد بمثل ذلك، وحط المقرر على هذه الجهة من المال، وعوَّضَ المقطعين جهاتٍ حلالًا"(122).

وإلى هنا يُفهم أنه جعل الدولة تستغني عن تلك الضريبة عن الفواحش، وعوَّض أصحاب الخانات جهاتٍ أخرى للكسب الحلال، لكن الذي يخص البغايا فإنه أمر بحبسهن إلى أن يتزوَّجن.

ومن أجل الإسراع في تزويجهن "لا يُزاد في مهورهن عن أربعمائة درهم يُعجَّل منها مئتان؛ رغبةً في تيسير زواجهن"(123).

ولعل مسألة تزويج البغايا وتسهيل زواجهن تكون قد أغلقت الباب بالفعل أمام البغاء، حيث لا يصح حدوثه في بلد إسلامي صار مقرًّا للخلافة.

ثالثًا- إبطال الحشيش والخمور:

سبقت الإشارة إلى أن السلطان أمر بإبطال المنكرات وإراقة الخمور وتعفية آثار المسكرات، وفكرة ضمان أكل الحشيش، وإذا عرفنا مقدار هذا الضمان؛ فإننا نتصور حجم الفساد المستشري بوجود الحشيش، فقد سارع السلطان برسم إبطال ما اعتمده النواب المتخلفون من ضمان الحشيش، وهو أربعون ألف درهم في السنة، وقيل كان الضمان ألف دينار لكل يوم، فأمر بإحراق الحشيش وأخرب بيوت المسكرات، وكسر ما فيها من الخمور فأراقها؛ وفي ذلك تبطيل للمفسدات، وتأديب لمضمنها وضامنها؛ ابتغاء ثواب الله تعالى(124).

ومن الواضح أن المبالغ مغرية، وقد أغرت نواب السلطان ففرضوا على الخمور وعلى الحشيش الضرائب، لإضافة مبالغ كبيرة لإيرادات الدولة، ولكنها من حرام، وتعني أن

(122) السلوك. جـ1- ص578.

(123) المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك. ص249.

(124) الروض الزاهر. ص233 و266. زبدة الفكرة- بيبرس المنصوري. ص102. بدائع الزهور. جـ1- ص236. البداية والنهاية. جـ17- ص481 و495. عقد الجمان (عصر سلاطين المماليك). جـ2- ص80. والخبر أيضا في: ذيل مفرج الكروب لابن المغيزل. ص70.

الدولة موافقة على هذا الفساد والاستهتار بتعاليم الدين الحنيف، مع أنها صارت دولة الخلافة التي يتطلع المسلمون إليها بوصفها منقذًا لهم، فلا يصح أن تبقى غارقة في الفواحش والمعاصي والملذات.

كما يتضح لنا أن السلطان الملك الظاهر بيبرس كان يتورع عن هذه المنكرات، وما يُجنَى من ورائها من أموال، فكان لمثل هذه الأمراض الاجتماعية بالمرصاد.

الخاتمة

لقد تناول البحث النزعة الإصلاحية عند السلطان بيبرس وأثرها الفكري والاجتماعي في مصر، فاستخلص الباحث ما يلي:

لم يعتمد السلطان الظاهر بيبرس على نجاحاته العسكرية والسياسية فقط، لكنه كان يحس بمسئولية أمام بقايا الفكر الشيعي في مصر، فعمل على ترسيخ المذاهب السنية الأربعة.

كانت اللبنة الأساسية لترسيخ المذاهب السنية إنشاء مدرسته، وإعادة الجامع الأزهر، وبناء جامعه، ووقف على ذلك ما يضمن بقاء تلك المؤسسات الدينية والتعليمية.

وعمل بيبرس على إعلاء مكانة العلماء في عصره، وانتهز فرصة وجود كبار الشعراء في إحدى المناسبات العلمية وخلع عليهم الأوسمة.

كان السلطان بيبرس يقف أمام الآفات الاجتماعية بمسئولية أخلاقية وعاطفة إنسانية، فقد وضع علاجًا لما ينتج عن الفوارق الطبقية، وهو الفقر، وخصوصًا في الأزمات الاقتصادية، حيث تكفلت الطبقات العليا باحتواء حاجة الفقراء وضمان عدم احتياجهم لثلاثة أشهر.

كما أن له تصورًا للمرأة في المجتمع، حيث لا يمكن تصور التحرش بها، وإلا فالعقوبة قطع اليد، كما أن على المرأة أن تقتصد في زينتها خارج بيتها، وأن لا تتشبه في زيِّها بالرجال، ولذلك أصدر قرارًا يمنع المرأة من لبس العمائم.

أما النساء الأجنبيات الخواطئ اللاتي كُنَّ يمتَهِنَّ مهنة البغاء؛ فلم يرض السلطان أن يُوجدن في مجتمع إسلامي يوجد على رأسه خليفة المسلمين، فكان لابد من إلغاء تلك المهنة، ولابد من إعادة تأهيل هؤلاء النساء، وإصدار قرارات بشأنهن لتسهيل زواجهن، حتى تختفي تلك الظاهرة من المجتمع.

كما أبطل بيبرس الحشيش والخمور واستأصلها من مصر، حتى صارت مصر قاعدة ينطلق منها جهاده، تمثل دولة الخلافة، ويُضاف اهتمامه بها؛ من الناحيتين الفكرية والاجتماعية؛ إلى نجاحاته السياسية والعسكرية.

قائمة المصادر والمراجع

أولا- المصادر:

1- ابن الأثير (علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الجزري 555- 630هـ/ 1160-1232م): التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية- تحقيق: عبد القادر أحمد طليمات- دار الكتب الحديثة بالقاهرة، ومكتبة المثنى ببغداد 1382هـ- 1963م.

2- الأدفوي (كمال الدين جعفر بن ثعلب 685- 748هـ/ 1286- 1347م): الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد- تحقيق: سعد محمد حسن- الدار المصرية للتأليف والترجمة- القاهرة 1386هـ- 1966م.

3- ابن أبي أصيبعة (موفق الدين أبو العباس أحمد بن سديد الدين الخزرجي الأنصاري ت668هـ/ 1270م): عيون الأنباء في طبقات الأطباء- شرح وتحقيق: د. نزار رضا- منشورات دار مكتبة الحياة- بيروت.

4- ابن إياس (أبو البركات الحنفي محمد بن شهاب الدين بن أحمد 852- 930هـ/ 1448- 1523م): بدائع الزهور في وقائع الدهور- حققه وراجعه وكتب الفهارس وقدم له: محمد مصطفى- منشورات فرنز شتاينر- فيسبادن 1395هـ- 1975م.

5- ابن تغري بردي (أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي الأتابكي 813-874هـ/ 1410- 1470م): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة- مطبعة دار الكتب المصرية- القاهرة 1357هـ- 1938م.

6- الذهبي (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان 673- 748هـ/ 1274-1348م): معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار- تحقيق: بشار معروف، شعيب الأرناؤوط، صالح عباس- ط/2- مؤسسة الرسالة- بيروت 1408هـ-1988م.

7- الزَّبيدي (محمد مرتضى الحسيني 1145- 1205هـ/ 1732- 1790م): تاج العروس من جواهر القاموس- تحقيق: مجموعة من الأساتذة المحققين- طبعة الكويت.

8- السبكي (تاج الدين عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي 727- 771هـ/ 1327-1370م): طبقات الشافعية الكبرى- تحقيق: عبد الفتاح الحلو، محمود الطناحي- دار إحياء الكتب العربية- القاهرة 1971م.

9- السحماوي (شمس الدين محمد ت868هـ/ 1464م): الثغر الباسم في صناعة الكاتب والكاتم؛ المعروف باسم (المقصد الرفيع المنشا الهادي لديوان الإنشا للخالدي)- دراسة وتحقيق: د. أشرف محمد أنس- دار الكتب والوثائق القومية- القاهرة 1430هـ- 2009م.

10- السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر 849- 911هـ/ 1445- 1505م): تاريخ الخلفاء- ط/2- مطبوعات وزارة الشؤون الإسلامية- قطر 1434هـ-2013م.

11- السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر 849- 911هـ/ 1445- 1505م): حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة- تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم- ط/1- دار إحياء الكتب العربية عيسى الحلبي- القاهرة 1387هـ- 1967م.

-12 ابن شداد (عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم بن شداد ت 684هـ/ 1285م): تاريخ الملك الظاهر- باعتناء: أحمد حطيط- دار النشر فرانز شتاينر بفيسبادن 1403هـ- 1983م.

-13 ابن شداد (عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم بن شداد ت 684هـ/ 1285م): سيرة صلاح الدين؛ المسماة بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية- مطبعة الآداب والمؤيد- مصر 1317هـ.

-14 الصقاعي (فضل الله بن أبي الفخر الكاتب النصراني ت726هـ/ 1326م): تالي كتاب وفيات الأعيان- تحقيق: جاكلين سوبلة- منشورات المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق- 1974م.

-15 ابن عبد الظاهر (القاضي محيي الدين أبو الفضل عبد الله بن رشيد الدين عبد الظاهر بن نشوان السعدي المصري 620- 692هـ/ 1323- 1292م): الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر- تحقيق ونشر: عبد العزيز الخويطر- ط/1- دار صادر للطباعة والنشر- بيروت 1396هـ- 1976م.

-16 العيني (أبو محمد بدر الدين الحنفي محمود بن أحمد بن موسى 762- 818هـ/ 1361- 1451م): عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان- (عصر سلاطين المماليك)- تحقيق: د. محمد محمد أمين- دار الكتب والوثائق القومية- القاهرة 1431هـ- 2010م.

-17 ابن كثير (عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي 701- 774هـ/ 1301- 1373م): البداية والنهاية- تحقيق: د. عبد الله التركي- ط/1- هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان- القاهرة 1419هـ- 1998م.

-18 الكناني (ناصر الدين شافع بن علي بن عباس 649- 730هـ/ 1252- 1330م): حُسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية- تحقيق ونشر: عبد العزيز بن عبد الله الخويطر- ط/2- الرياض 1410هـ- 1989م.

-19 ابن المغيزل (نور الدين علي بن عبد الرحيم بن أحمد الكاتب الملكي المظفري سبط الحموي؛ المعروف بابن المغيزل ت701هـ/ 1301م): ذيل مفرج الكروب في أخبار بني أيوب- تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري- ط/1- المكتبة العصرية- صيدا/ بيروت 1425هـ- 2004م.

-20 المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر ت845هـ/ 1441م): إغاثة الأمة بكشف الغُمَّة- دراسة وتحقيق: د. كرم حلمي فرحات- ط/1- عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية- القاهرة 1427هـ- 2007م.

-21 المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر ت845هـ/ 1441م): السلوك لمعرفة دول الملوك- قام بنشره: محمد مصطفى زيادة- مطبعة دار الكتب المصرية- القاهرة 1936م. جـ1- ق2.

-22 المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر ت845هـ/ 1441م): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار؛ المعروف بالخطط المقريزية- تحقيق: د. محمد زينهم، ومديحة الشرقاوي- مكتبة مدبولي- القاهرة 1998م.

-23 المنصوري (ركن الدين بيبرس الدوادار ت725هـ/ 1325م): التحفة الملوكية في الدولة التركية- نشر وتقديم: د. عبد الحميد صالح حمدان- ط/1- الدار المصرية اللبنانية- القاهرة 1407هـ- 1987م.

24- المنصوري (ركن الدين بيبرس الدوادار ت725هـ/ 1325م): زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة- تحقيق: دونالد س. ريتشاردز- ط/1- جمعية المستشرقين الألمانية- 1998م.
25- المنصوري (ركن الدين بيبرس الدوادار ت725هـ/ 1325م): مختار الأخبار- تحقيق وتقديم: د. عبد الحميد صالح حمدان- ط/1- الدار المصرية اللبنانية- القاهرة 1413هـ- 1993م.
26- الهمذاني (رشيد الدين فضل الله 645- 718هـ/ 1247- 1318م): جامع التواريخ مج1- جـ1 (تاريخ خلفاء جنكيز خان: من أوكتاي قآن إلى تيمور قآن)- نقله إلى العربية: فؤاد عبد المعطي الصياد- دار النهضة العربية- بيروت. مج2- جـ1 (الإيلخانيون: تاريخ هولاكو)- نقله إلى العربية: محمد صادق نشأت، محمد موسى هنداوي، فؤاد عبد المعطي الصياد- منشورات وزارة الثقافة- مصر.
مج2- جـ2 (الإيلخانيون: تاريخ أبناء هولاكو)- نقله إلى العربية: محمد صادق نشأت، فؤاد عبد المعطي الصياد- منشورات وزارة الثقافة- مصر.

ثانيًا- المراجع:

27- إقبال، عباس: تاريخ المغول منذ حملة جنكيز خان حتى قيام الدولة التيمورية- ترجمة: د. عبد الوهاب علوب- المجمع الثقافي- أبو ظبي 1420هـ- 2000م.
28- حسن، د. علي إبراهيم: دراسات في تاريخ المماليك البحرية وفي عصر الناصر محمد بوجه خاص- مكتبة النهضة المصرية- القاهرة 1944م.
29- حسين، د. محمد كامل: طائفة الإسماعيلية: تاريخها، نظمها، عقائدها- ط/1- مكتبة النهضة المصرية- القاهرة 1959م.
30- حلاق، حسان، وزميله: المعجم الجامع في المصطلحات الأيوبية والمملوكية والعثمانية ذات الأصول العربية والفارسية والتركية- ط/1- دار العلم للملايين- بيروت 1999م.
31- دهمان، محمد أحمد: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي- ط/1- دار الفكر- دمشق 1410هـ- 1990م.
32- صادق، محمد جمال: موسوعة تاريخ القفقاس والشركس- جمع وترتيب- منشورات دار علاء الدين- دمشق 1996م.
33- صابان، د. سهيل: المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية- مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية- السلسلة الثالثة (43)- الرياض 1421هـ- 2000م.
= صباغ، د. عباس: انظر: حلاق، حسان
34- عاشور، د. سعيد عبد الفتاح: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك- دار النهضة العربية- القاهرة 1992م.
35- العبادي، د. أحمد مختار: قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام- دار النهضة العربية للطباعة والنشر- بيروت 1406هـ- 1986م.
36- عزت، يوسف باشا: تاريخ القوقاز: بحث عن أهمية بلاد القفقاس السياسية والحربية وعن منشأ أممها وشعوبها وقبائلها وتاريخها الحربي من قديم الزمان- تعريب: عبد الحميد غالب بك- مطبعة عيسى الحلبي- القاهرة 1352هـ- 1933م.
37- العناقرة، د. محمد: المدارس في مصر في عصر دولة المماليك: دراسة تاريخية من خلال الوثائق والوقفيات والحجج- من منشورات المجلس الأعلى للثقافة- القاهرة 2015م.

38- فريد، محمد: تاريخ الدولة العلية العثمانية- مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة- القاهرة 2014م.

39- قادوس، د. عزت زكي حامد: آثار الإسكندرية القديمة- ط/2- منشأة المعارف- الإسكندرية 2000م.

40- القوصي، د. عطية: المتجر السلطاني في العصر المملوكي- ضمن كتاب "المجتمع المصري في العصرين المملوكي والعثماني"- تحرير: د. عبادة كحيلة- المجلس الأعلى للثقافة- القاهرة 2007م.

41- ماجد، د. عبد المنعم: نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر- ط/2- مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة 1982م.

42- ماهر، د. سعاد: مساجد مصر وأولياؤها الصالحون- المجلس الأعلى للشئون الإسلامية- القاهرة 1399هـ- 1979م.

43- مبارك، علي باشا: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة- ط/1- مطبعة بولاق- القاهرة 1306هـ.

44- محمود: د. علي السيد: الجواري في مجتمع القاهرة المملوكية- سلسلة "تاريخ المصريين" (18)- الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة 1988م.

45- مختار، اللواء محمد باشا: التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنكية والقبطية- دراسة وتحقيق وتكملة: د. محمد عمارة- ط/1- المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت 1400هـ- 1980م.

46- نصار، لطفي أحمد: وسائل الترفيه في عصر سلاطين المماليك في مصر- سلسلة "تاريخ المصريين" (141)- الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة 1999م.

ثالثًا- الدوريات:

47- عبد الوهاب، حسن: نشأة المدارس بمصر - مجلة (منبر الإسلام)- القاهرة- السنة التاسعة عشرة، رجب 1381هـ- العدد 7.

48- مرزوق، محمد عبد العزيز: جامع الظاهر بيبرس البندقداري- المجلة التاريخية المصرية- المجلد الثالث - الجزء الأول.